الحياة الخالدة

أو

الحياة الأخرى

الاستاذ الشهيد مرتضى مطهّري

ترجمة

محمد علي آذرشب

الكتاب: الحياة الخالدة أو الحياة الاخرى
المؤلّف: الاستاذ الشهيد مرتضى مطهرى
المترجم: محمدعلي آذرشب
الناشر: قسم الاعلام الخارجي ــ مؤسسة البعثة
الطبعة الاولى: ١٤٠٧هـ.ق
مؤسسة البعثة. الهاتف: ٨٢١١٥٩

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه هي الحلقة السابعة من سلسلة «مقدمة فى التصور الاسلامي» للاستاذ الشهيد مرتضى مطهري، وهذا الكتاب من الكتب التي تركها الاستاذ مطهري رضوان الله عليه دون تنقيح وتصحيح، وطُبع فى الفارسية بعدَ استشهاده على نواقصه ومطبّاته.

حاولت ما أمكنني أن أرمّم النواقص، وأن أنظم سياق العبارات لتكون أقرب الى الفهم والتبويب، وإنْ حالفني بعض التوفيق فيها فعلت فما توفيقى إلاّ بالله عليه توكلت و اليه أُنيب.

يوم القدس (آخر جمعة من شهر رمضان المبارك)

سنة ١٤٠٤ هجرية

«المترجم»

المعاد

من أركان التصور الاسلامي

الايمان بالحياة الخالدة والحياة الاخروية واحد من أصول التصور الاسلامي ومن أركان الايمان والاعتقاد في الاسلام، ولايكون الانسان مسلماً مالم يحمل مثل هذا الايمان.

الأنبياء— بأجمعهم— دعوا الناس الى الايمان بالحياة الاخرى باعتباره أهم أصل بعد التوحيد. وهذا الاصل اصطلح عليه المتكلمون المسلون اسم «أصل المعاد».

في القرآن الكريم مئات الآيات التي تدور حول الحياة الأخرى ويوم القيامة وكيفية حشر الاموات والميزان والحساب وتسجيل الاعمال والجنة والنار وخلود عالم الآخرة وسائر المسائل المرتبطة بعالم مابعد الموت. وفي اثنتي عشرة آية ورد ذكر الايمان باليوم الآخر بعد الايمان بالله.

القرآن الكريم ذكر عالم القيامة بتعابير مختلفة، وكل تعبير يشكل باباً من المعرفة، وأحد هذه التعابير «اليوم الآخر» وأراد القرآن من هذا التعبير أن يذكرنا بمسألتين:

الاولىـ أن حياة الانسان بل مسيرة الكون تنقسم بمجموعها على مرحلتين أو «يومين» المرحلة الاولى الفانية (مرحلة الحياة الدنيا)، والمرحلة الاخرى الخالدة (مرحلة الحياة الاخرو ية)، وورد في القرآن تعبير «الاولى» و «الآخرة» ليعبّر عن الحياتين الدنيو ية و الاخرو ية.

وإنَّ لَنا لَلآخرةَ والأولىٰ. (الليل، ١٣)

ولَلآخرةُ خيرٌ لَكَ مِنَ الأولىٰ. (الضحى، ٤)

الثانيةـ إن سعادتنا في هذه الحياة الدنيا المعاشة، وفي الحياة الآخرة المحجوبة عنا تكمن في «الايمان» باليوم الآخر

الايمان بالحياة الاخرى يوفّر لنا السعادة في هذه الدنيا لان هذا الايمان ينبّهنا على نتائـــج أعمالنا، و يُفهمنا أن أعمالنا وأقوالنا صغيرَها وكبيرَها لها، مثل مالنا، يومان: يومٌ أول و يومٌ آخر. أى إنها لا تنعدم ولا تـــنتهي في الحياة الدنيا، بل تبقى لتُحتَسب في الميزان في اليوم الآخر. من هنا فان هذا الايمان يحثنا على أن نكون خيّرين في أعمالنا ونوايانا وأن نبتعد عن أفعال السوء، أي يحثّنا على أن نطوى باستمرار طريق فعل الخيرات. كما ان الايمان بالحياة الاخرى يوفر لنا السعادة أيضافي تلك الحياة الاخرو ية لان أعمالنافي هذه الدنيا سوف تكون ـ كما سنبيّن ذلك ـ أساس سعادتنا و شقائنا في تلك الحياة.

من هنا أكد القرآن الكريم على أن الايمان باليوم الآخر أمر ضروري و لازم لسعادة البشر.

مصدرالايمان با لحياة الاخرىٰ

المصدر الاول و الاساس في الايمان بالحياة الخالدة والحياة الاخرى هو الوحي الالهي المنقول الى البشر عن طريق الانبياء.

بعد أن يؤمن الانسان بالله و برسله وبما أنزل الله على رسله عن طريق الوحي فانه يؤمن أيضا بيوم القيامة والحياة الخالدة كأهم أصل دعا اليه الانبياء بعد أصل التوحيد.

من هنا فايمان الفرد بالحياة الاخرى يتوقف أولا على درجة إيمانه بأصل النبوة و بصدق أقوال الانبياء، و يتوقف ثانياً على مستوى معلومات الفرد وعلى صحة تصوره في أمر المعاد والعالم الآخر، ومدى ابتعاد هذه التصورات عن الاوهام والتخيلات الساذجة.

إضافة الى طريق الوحي الذي بشر به الانبياء، ثمة طرق أخرى، أو علائم و قرائن أخرى للايمان بالمعاد. وهذه الطرق حصيلة الجهود الفكرية والعقلية والعلمية البشرية وهي ـ على الاقل ـ تأييد لصحة أحاديث الانبياء بشأن المعاد والعالم الآخر. هذه الطرق عبارة عن:

١ـ طريق معرفة الله.

٢ـ طريق معرفة العالم.

٣ـ طريق معرفة الروح والنفس الانسانية.

لانتطرق هنا الى هذه الطرق لان ذلك يفرض طرح مجموعة من البحوث العلمية والفلسفية، ونكتفي بمعالجة الموضوع عن طريق الوحي والنبوة. ونظراً لأنّ القرآن صرح في مواضع عديدة بهذه الطرق او أشار اليها، فنحن سنشير اليها فيما بعد تحت عنوان «استدلالات القرآن حول العالم الآخر».

وليتضح رأي الاسلام في الحياة الخالدة والحياة الاخرى ندرس الموضوعات التالية:

* ماهية الموت.
* الحياة بعد الموت.

* عالم البرزخ.
* القيامة الكبرى.
* العلاقة بين الحياة الدنيا والحياة الاخرى.
* خلود الاعمال وتجسّمها.
* أوجه الاشتراك والاختلاف بين الحياة الدنيا والحياة الاخرى.
* استدلالات القرآن حول الحياة الاخرى.

ماهية الموت :

ماهوالموت؟

هل هوفناء وزوال وانهدام، أم هو تحول وتطور وانتقال من مكان الى آخر ومن عالم الى عالم آخر؟

هذا السؤال أشغل ذهن البشرية دوما، فأناس ذهبوا للبحث عن جواب لهذا السؤال بأنفسهم، وأُناس آمنوا بما أجاب عليه الآخرون.

نحن المسلمون نعود الى القرآن الكريم لنأخذ منه الجواب على هذا السؤال، ومن الطبيعي فاننا نؤمن بهذا الجواب انطلاقا من إيماننا بهذا الكتاب الالهي.

القرآن الكريم له إجابته الخاصة على هذا السؤال، وله تعبيره الخاص في الحديث عن ماهية الموت. فهو يستعمل كلمة «توفّي» غالباً بدل كلمة مات.

والتوفّي في اللغة هو الاستيفاء[1]، وتوفّي المال، أي استوفاه، أو

(١) توفي فلان وتوفاه الله: إذا قبض روحَه... الله يتوفى الانفسَ حين موتها أي يستوفيها (لسان العرب، مادة وفى)

أخذه كاملا دون نقص. وهذا التعبير ورد في اثنتي عشرة آية من الذكر الحكيم. وجميعها تدل على أن الموت في نظرالقرآن الكريم عملية استلام. أي استلام المَلَك الموكّل شخصيةَ الانسان الحقيقية الكاملة لدى الموت. ومن هذا التعبير القرآني نستنبط مايلي:

الفـ ليس الموت فناء وزوالاً وعدماً، بل هو انتقال من عالم الى عالم آخر، ومن نشأة الى نشأة أخرى، وتستمر حياة الانسان بنمط آخر.

بـ جسد الانسان، بأعضائه وتوابعه، لايمثل الشخصية الواقعيّة للانسان ولايعبّر عن (الانا) الحقيقي للموجود البشري، لان الجسد لايُسَلَّم الى جهة أخرى، بل يبقى في هذا العالم و يتجزأ بالتدريج. والذي يمثل شخصيتنا الواقعية و«الانا» الحقيقي هو ما يعبرعنه القرآن بالنفس حينا و بالروح حينا آخر.

جـ هذه الروح أو النفس تحتل ـ في مرتبتها الوجودية ـ أفقا يسمو على أفق المادة والماديات. مع أن الروح أو النفس حصيلة التكامل الجوهري في الطبيعة ـ فالطبيعة على أثرالتكامل الجوهري و تبدلها الى روح أو نفس ـ يتبدل أفقها الوجودي و مرتبتها الواقعية، و تسمو الى مرتبة أعلى، أي تصبح من جنس عالم آخر هو عالم ماوراء الطبيعة.

بموت الانسان تنتقل الروح أو النفس الى نشأة من سنخ الروح. و بعبارة أخرى تتم ـ لدى الموت ـ عملية تسليم تلك الحقيقة المتسامية على حقيقة المادة.

القرآن الكريم أشار في بعض الآيات الى وجود هذه الحقيقة المتسامية في الانسان، والى أنّ هذه الحقيقة هي غير عنصر «الحمأ المسنون» الذي يتكون منه جسد الانسان:

واذْ قالَ ربك للملائكة إنّي خالقٌ بشراً من صَلصال مِنْ حَمَأ مسنون
فاذا سوّيتُهُ ونَفَختُ فيه مِن روحي فَقَعُوا لَهُ ساجدين.

(الحجر، ٢٩ــ ٣٠)

مسألة الروح أو النفس، و بقاءالروح بعد الموت من أمهات المعارف الاسلامية. نصف المعارف الاصيلة الاسلامية تقوم على أساس أصالة الروح واستقلالها عن البدن و بقائها بعد الموت كما إن القيم الواقعية الانسانية تستند الى هذه الحقيقة، ولولا هذه الحقيقة لأضحت تلك القيم وهما محضاً.

الآيات القرآنية التي تتحدث عن الحياة بعد الموت تُصــرحُ جميعا أن الروح حقيقة مستقلة عن الجسد، و أنها تبقٰى بعد فناء البدن.

بعض المسلميــن المتأثرين بتيارات الفكر المادي الغربي ذهبوا الى أن القرآن لايقرّ وجود الروح، وأن الانسان يفنٰى بعد الموت و ينعدم إحساسه بأي شيء، فلايشعر بسعادة ولاشقاء و يبقى على حاله هذه حتى يوم القيامة إذ يعود الانسان الى الحياة الاخرى. وقال هؤلاء: إن كلمة الروح في الآية الكريمة «... قل الروح من أمر ربّي» تعنى أمراً آخر غير الروح الانسانية، ودليلهم على ذلك أن هذه الكلمة وردت في آيات أخرى بمعان أخرى.

غير أن الآيات الكريمة التي تتحدث عن حياة الانسان بعد الموت ترفض هذه النظرة. دليل القائلين بوجود الروح ليست الآية المذكورة أعلاه فحسب، بل ثمة مايقارب عشرين آية تحدثت عن الروح بعضها استَعملت كلمة الروح مطلقة و بعضها استعملتها مضافة: مثل روحنا وروح القدس وروحي وكلها تشير الى وجود حقيقة سامية غير

عادية هي «الروح»[١].

ليس القرآن وحده أكد على أصالة الروح في آيات عديدة، بل السنة أيضا أكدت على ذلك.

نذكر فيما يلي نماذج من الآيات التى عبّرت عن الموت بالتوفي، وتحدثت بعضها عن أعمال حياتية للانسان بعد الموت كالكلام والتمني والطلب:

١ ـ إنّ الذينَ توفّاهُمُ الملائكةُ ظالمى أنفُسهم قالوا: فيم كنتم؟ قالوا: كنّا مُستضعَفين في الارض. قالوا: ألم تكنْ أرضُ اللهِ واسعةً فتُهاجروا فيها؟ فأولئك مأواهم جهنمُ وساءت مصيرا. (النساء، ٩٧)

هذه الآية تتحدث عن المستضعَفين الظالمي أنفسِهم، أي الفئة التي رضخت للجوّ الفاسد بحُجّة عدم قدرتها على تغييره. والملائكة تصب اللوم على هؤلاء بعد موتهم، و ترفض تبر يراتهم، إذ إنهم قادرون على الهجـرة من المحيط الفاسد على الاقل، و تُحمّلهم مسؤولية ما حاق بهم من ظلم، بل وتعتبرُهم في زمرة الظالمين. و تلك تذكرة لكل من يعيش في مثل هذه الاجواء.

هذه الآية تعبّر عن الموت أولا بالتوفي، وتتحدث ثانياً عن حوار يدور بين الملائكة والانسان في لحظات تلي الوفاة. وهذا الحوار له دلالة على أن الانسان ـ بعد انتقاله من هذه الحياة ـ يتحدث الى موجودات باسم الملائكة، بطر يقة ـ طبعا ـ غيرالطر يقة التي نألفها في هذه الحياة.

---

(١) راجع تفسير «الميزان»، ج ١٣ ص ١٩٥، ذيل الآية الكر يمة «قل الروح من أمر ربي» وج ٣ ص ٢٧٠ ـ ٢٧٥، ذيل الآية الكريمة «يوم يقومُ الروحُ والملائكة صفاً».

٢ ــ وقالوا أ إذا ضللنا في الارض أ إنّا لفي خلق جديد. بل هم بلقاء ربّهم كافرون. قل يتوفّاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربّكم ترجعون. (السجدة، ١١ ــ ١٢)

هذه الآية تطرح إحدى شبهات منكري المعاد والحياة الاخرى وهؤلاء المنكرون يقولون إن أجسامنا تتفتت وتتفرق في الارض بعد موتها، فكيف نحيا ثانية؟ القرآن الكريم ــ ضمن تأكيده على أن هذه الشبهة تنطلق من حالة نفسية تتمثل فى روح الانكار والعناد ــ يقول: إن شخصيتكم الواقعية ليست بشيء يفنى و يضيع، بل يستوفيها الملك الموكل من قبل الله.

ومثل هذه الشبهة يطرحها القرآن في مكان آخر و يردّ عليها بأنّ الله قادر على أن يعيد خلق الانسان كما خلقه أول مرة:

وَضَربَ مثلا ونسىَ خلقه قال: منْ يحيي العظامَ وهى رميم؟ قلْ يُحييها الذي أنشأها أول مرةٍ وهوبكل خلق عليم.

الآية ١١٠ من سورة السجدة، المذكورة، تصرّح ببقاء شخصية الانسان الحقيقية (أي بقاء الروح) بعد الموت.

٣ ــ اللهُ يتوفّى الانفسَ حينَ موتها والتى لَم تَمتْ فى منامها، فيُمسِك التى قضى عليها الموت و يُرسل الاخرى الى أجل مسمّى، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون. (الزمر، ٦٢)

هذه الآية الكريمة توضح التشابه والسنخيّة بين النوم والموت (و بين اليقظة والبعث ضمنيا). النوم موت ضعيف صغير، والموت نوم شديد كبير. وفي كلا الحالتين تنتقل النفس الانسانية من نشأة الى نشأة أخرى، مع فارق هو أن الانسان لايعي على نفسه في النوم و لايعلم

عند اليقظة أنه عاد في الحقيقة من رحلة، لكنه يعي كلّ شيء عندالموت.

من مجموع الآيات الثلاث المذكورة يمكننا أن نفهم بوضوح أنّ ماهية الموت – في نظر القرآن – ليست عدماً وفناء، بل انتقالا من نشأة الى نشأة أخرى.

مسألة النوم التي أشار اليها القرآن في الآية الاخيرة من المسائل المعقدة الغامضة أمام العلم. وما يستطيع العلم أن يفهمه عن النوم – وهكذا عن الموت – هو مجموعة التغييرات التي تحدث على فسلجة الجسم لاغير. أما التغيير الروحي في حالتي النوم والموت فلاسبيل للعلم أن يفهمه.

الحياة بعد الموت

الانسان بعد الموت لايد خل عالم القيامة الكبرى مباشرة كما تدل على ذلك نصوص الكتاب والسنة المتواترة. لان القيامة الكبرى تقع بعد مجموعة تغييرات عامة في الكون تشمل الجبال والبحار والمياه والشمس والنجوم والكواكب وكل الظواهر المشهودة في الكون، وفيها يجتمع الاولون والآخرون، وحينُها غيرُ معلوم، وربما امتدّ النظام الكوني القائم الى ملايين أو مليارات السنوات حتى يحدث عليه ذلك التغيير الكبير الشامل، والله وحده هو العالم بذلك.

و يُستفاد من آيات القرآن الكر يم (المذكورة في هذا الفصل وغيرها من الآيات) أن الانسان يعيش في حالة وعي وشعور بين يومي الوفاة والقيامة. وفي هذه الفترة يحسّ بالسرور و بالألم، وسروره وألمه يرتبطان بأفكاره وأعماله في الحياة الدنيا. وتستمر هذه المرحلة حتى

تحين ساعة القيامة الكبرى.

الانسان - في رأي القرآن الكريم - يمّر اذن بمرحلتين بعد الموت، بعالمٍ محدودٍ فانٍ مثل عالم الدنيا هو «عالم البرزخ»، وعالَم غير محدود هو عالم القيامة.

عالم البرزخ

البرزخ مايفصل بين شيئين، والقرآن أطلق هذه الكلمة على الفترة الفاصلة بين الموت والقيامة:

حتى إذا جاء أحدَ هم الموتُ قال ربِّ ارجعونِ لعلّي أعملُ صالحاً فيما تركت، كلا إنها كلمةٌ هو قائلُها، ومن ورائهم برزخٌ الى يوم يُبعثُون.
(المؤمنون، ١٠٠)

علماء الاسلام اقتبسوا كلمة البرزخ من هذا الموضع الوحيد لورود هذه الكلمة في القرآن الكريم وأطلقوا على العالم الفاصل بين الحياة الدنيا والقيامة اسم «عالم البرزخ».

هذه الآية تكتفي بذكر حالة الندم التي تظهر على أفراد بعدَ الموت وطلبهم العودة الى الحياة الدنيا، وهي بذلك تصرح بوجود نوع من الحياة للانسان بعد الموت.

ثمة ما يقارب خمس عشرة آية تتحدث عن عالم ما بعد الموت. وتوضح جميعها تمتّع الانسان بنوع من الحياة في الفترة بين الوفاة والقيامة، واحساسه باللذة أو الالم. يمكن تقسيم هذه الآيات على ثلاث مجاميع:

١ــ آيات تستعرض حواراً بين الصالحين أو المفسدين وبين الملائكة، بعد الموت مباشرة والآية ٩٧ من سورة النساء، والآية ١٠٠ من

سورة المؤمنين المذكورتان، من هذا النوع من الآيات.

٢ ــ آيات تصرح، بعدالحوار، بتمتع الانسان بالنعم الالهية، قبل يوم القيامة:

الف ــ الذينَ تتوفاهم الملائكة طيبّينَ يقولون : سلامٌ عليكم دخلوا الجنةَ بما كنتم تعمَلون. (النحل، ٣٢)

ب ــ قيل : ادخل الجنةَ، قال : ياليتَ قومي يعلمون بما غَفَر لي ربي وجعلني مِنَ المُكرَمين. (يس، ٢٦ــ ٢٧)

والآية الاخيرة تتحدث عن ذلك المؤمن السائر على خط الرسل، الذي دعا قومه فعصوه. وها هو يتجه الى الجنة بعد موته فيتمنىٰ لوأنّ قومه الباقين على قيد الحياة في الحياة الدنيا علموا مايحيط به من سعادة. ومن الطبيعي فان حديث الآية يدور عن عالم ماقبل القيامة، لان القيامة تجمع الاولين والآخرين، ولن يبقى على ظهرالأرض حينئذ أحد.

جدير بالذكر أن جناناً عديدة أعدت للصالحين بعد الموت لا جنة واحدة. وهذه الجنان مختلفة في الآخرة باختلاف مراتب القرب الالهي. وهناك بعض الجنان ترتبط بعالم البرزخ كما ورد في الاخبار وفي روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام. من هنا فورود كلمة الجنة في الآيتين السابقتين لايعني ارتباطهما بعالم القيامة.

٣ــ مجموعة أخرى من الآيات لا تتطرق الى حوار بين الملائكة والانسان، بل تتحدث مباشرة عن حياة الصالحين والطالحين، وعن سعادة أولئك وشقاء هؤلاء في الفترة الفاصلة بين الموت والقيامة:

الف ــ ولا تَحسَبَنّ الذينَ قتُلوا في سبيلِ اللهِ أمواتاً، بل أحياءٌ عندَ ربهم يُرزقون، فَرحينَ بما آتاهم اللهُ مِنْ فَضلِه و يستَبشرونَ بالذينَ لم

يلحقوا بهم من خلفهم، ألاّ خوفٌ عليهم ولا هُمْ يحزنون.
(آل عمران، ١٦٩– ١٧٠)

ب – وحاقَ بآلِ فرعونَ العذاب النارُ يُعرَضون عليها غُدواً وعَشِياً ويومَ تقومُ الساعةُ ادخُلوا آلَ فرعونَ أشدَّ العذاب. (المؤمن ٤٥– ٤٦)

الآية الكريمة الاخيرة تتحدث عن نوعين من العذاب ينزل بآل فرعون بعد الموت، الاول قبل يوم القيامة وعبّر عنه القرآن بسوء العذاب. والآخر ينزل بهم بعد يوم القيامة وعبر عنه بأشدّ العذاب ويلاحظ أنّ الآية تحدثت عن العذاب الاول بأنه ينزل بآل فرعون غدواً وعشياً، وروي عن أمير المؤمنين علي – عليه السلام – في توضيح هذه الآية أن حياة البرزخ كالحياة الدنيا فيها غدوّ وعشاء وأسبوع وشهر وسنة خلافا لعالم القيامة حيث تنعدم فيه هذه الاوقات.

في الاخبار والروايات المنقولة عن رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم – وعن أئمة آل البيت عليهم السلام تأكيد كثير على عالم البرزخ وعلى حياة أهل الايمان وأهل المعاصي فيه.

بعد واقعة بدر ألقى المسلمون أجسادَ سراة قريش فى القليب (البئر). فسمع الصحابة ذات ليلة رسول الله وهو يقول: يا أهل القليب، يا عتبة بن ربيعة ويا شيبة بن ربيعة ريا أمية بن خلف ويا أبا جهل بن هشام، فعدّد من كان في القليب: هل وجدتم ماوعدكم ربكم حقاً، فاني وجدت ماوعدني ربّي حقّا؟

فقال المسلمون: يا رسول الله، أتنادي قوما قد جُيّفوا (أى صاروا جيفا)؟ قال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لايستطيعون أن يجيبوني[1]...

(١) السيرة النبوية، ابن هشام، ج ٢، ط دار إحياء التراث العربي، ص ٢٩١

حادثة تستوعب جميع الاشياء وكل أفراد البشر، و يدخل الكون فيها بأجمعه مرحلة جديدة و حياة جديدة و نظاما جديدا.

القرآن الكريم أخبرنا عن هذه الحادثة الكبرى مقرونة بتكوير الشمس وانكدار النجوم وتسجير البحار وانفجارها وانفطار السماء وانتثار الكواكب وتحول الجبال الى شـــيء كالعهن المنفوش... وأمثالها من التغييرات الكونية الهائلة.

يبدو من القرآن الكريم أنّ العالم بأجمعه يتّجه نحو الانهدام والخراب والابادة، و ينشأ عالم آخر تتحكم فيه قوانين ونظم أخرى خالدة تختلف اختلافا أساسيا عن القوانين والانظمة الحالية المتحكمة في هذا العالم.

القيامة في القرآن الكريم لها مسميات مختلفة، وكل اسم يوضح جانبا من جوانب وضع ذلك العالم. فباعتبار أن عالم القيامة يجمع الاولين والآخرين على صعيد واحد سمّي «يوم الحشر» و «يوم الجمع» و «يوم التلاقي»، و باعتبار أن الاسرار والحقائق المخبوءة تنكشف في هذا العالم سُمّي «يوم تبلى السرائر» و «يوم النشور»، و باعتبار خلوده سمي «يوم الخلود»، و باعتبار أن أبناء البشر يغطّون هذا اليوم في حسرة وندم على مافرّطوا من أمرهم في الحياة الدنيا سمي «يوم الحسرة» و «يوم التغابن»، و باعتباره حدثا عظيما وخبراً جسمياً سمي «النبأ العظيم».

العلاقة بين الحياة الدنيا والحياة الاخرى

المسألة الاساسية التي ركزت عليها الكتب السماوية هي العلاقة بين الحياتين. ليس بين هاتين الحياتين انفصال، بذرة تلك الحياة يغرسها الانسان بيده في هذه الحياة، ومصير الانسان في تلك

الحياة يقرره الانسان بنفسه في هذه الحياة.

الايمان، والاعتقاد الصحيح الواقعي، والخلق الانساني الرفيع البعيد عن الحسد والمكر والخداع والحقد والغش، وكل الاعمال الصالحة المتجهة نحو خدمة الفرد والمجتمع كالخدمات و الخيرات والمبرات وأمثالها، تصنع حياة سعيدة خالدة للانسان؛على العكس من ذلك فقدان الايمان والاعتقاد الصحيح، والاخلاق السيئة، والذاتية والانانية، والظلم، والرياء، وابتزاز الاموال، والكذب والتهمة، والخيانة، والغيبة، والنميمة، والاستنكاف عن العبادة وأمثالها، تؤدي الى حياة شقية للانسان في الحياة الاخرى.

رسول الله— صلى الله عليه وآله وسلم— يعبّر عن هذه العلاقة قائلا: «الدنيا مزرعةُ الآخرة». فكل بذرة صالحة كانت أم طالحة تؤتي أُكلها في ذلك العالم. كما إن من المحال أنّ يحصد الانسان في هذه الدنيا قمحاً إذا زرع شعيراً أو أن يحصد حنظلا إذا زرع تمراً، كذلك من المحال أن يزرع الانسان في هذه الدنيا بذورَ الخير و يحصد في تلك شراً، والعكس صحيح أيضا.

خلود الاعمال وتجسّمها

يُفهم من القرآن الكريم والمرويّ عن أئمة الدين، أن عمل الانسان باق لاينمحي أو يزول كبقاء الانسان وخلوده، وكل أعمال الانسان تصبح محضرة مرئية في نشأة القيامة. فأعمال الانسان الخيرة تتجسم بصورة جميلة رائعة تبعث على اللذة والانشراح، وأعماله الشريرة

تتجسّم بشكل قبيح مزعج و بصورة مصدر للألم والعذاب[١].

نكتفي هنا بذكر بعض الآيات والروايات بهذا الشأن:

١ــ يومَ تَجِدُ كلُّ نفسٍ ماعملتْ مِن خيرٍ مُحضَرا، وما عَمِلتْ من سوءٍ تودُّ لو أن بينها و بينَه أمداً بعيدا. (آل عمران، ٣٠)

هذه الآية تصرح بأن الانسان يرى في يوم القيامة عمله ماثلا أمامه، خيراً كان أم سوءا، وأن الانسان ينفر من عمله السوء المحضر أمامه، حتى يودّ أن يهرب منه، ولات حين فرار. العمل المحضر أمام الانسان هو جزء من وجود الانسان لاينفصل عنه.

٢ــ ووَجَدوا ما عمِلوا حاضرا. (الكهف، ٤٩)

وهذه الآية تفيد نفس مفهوم الآية السابقة.

٣ــ يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليُروا أعمالَهم فمَنْ يعمل مثقالَ ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقالَ ذرةٍ شراً يره. (الزلزال، ٦ــ ٨)

الانسان باق وخالد، وأعمال الانسان وآثاره باقية ومدونة وخالدة، والانسان يعيش في الحياة الاخرى بأعماله وأخلاقه وماكسبت يداه في الحياة الدنيا. وسواء كانت هذه الاعمال و المكتسبات صالحة أم سيئة فانها تكون الصاحب الدائمي الصالح أو السيّء للانسان في الحياة الاخرى.

أما الاحاديث[١]:

---

(١) راجع كتاب «عدل الهي» =العدل الالهي، وفيه أوضحنا أن «النعيم» و «الجحيم» ليسا الاصورا ملكوتية للاعمال.

(١) لم يذكر الاستاذ الشهيد سوى حديثا واحداً بشأن خلود الاعمال وتجسّمها، وفاته أن يذكر البقية، ولذ لك راجعت بحار الانوار للعلامة المجلسي واستخرجت منه الاحاديث التي يراها القارئ الكريم.

١— قال رسول الله (ص): أما إنّ الله عز وجل كما أمركم أن تحتاطوا لانفسكم وأديانكم وأموالكم باستشهاد الشهود العدول عليكم،فكذلک قد احتاط على عباده، ولكم في استشهاد الشهود عليهم. فلله على كلى عبدٍ رقباء من كل خلقه ومعقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله و يحفظون مايكون منه من أعماله وأقواله وألفاظه وألحاظه والبقاع التي تشتمل عليه شهود ربّه، له أو عليه، والليالي والايام والشهور شهود عليه أوله، وسائر عباد الله المؤمنين شهود عليه أوله، وحفظته الكاتبون أعماله شهود له أوعليه[١].

٢— قال ابوذر (رض) سمعت رسول الله (ص) يقول: حافتا الصراط يوم القيامة الرحم والامانة، فاذا مرّ الوَصُول للرحم المؤدّي للامانة نفذ الى الجنة، واذا مرّ الخائن للامانة القَطُوع للرحم، لم ينفعه معهما عمل، وتكفأ به الصراط في النار[٢].

٣— عن أبي جعفر الباقر— عليه السلام— في قوله: «وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه» يقول: خيره وشرّه معه حيث كان، لايستطيع فراقه حتى يُعطىٰ كتابه يوم القيامة بما عمل[٣].

٤— عن المفضل بن عمر قال: سألت أبا عبدالله (ع) عن الصراط فقال: هو الطريق الى معرفة الله عزّ وجل، وهما صراطان: صراط في الدنيا وصراط في الآخرة. فأما الصراط الذي في الدنيا فهو الامام المفروض الطاعة، ومن عرفه في الدنيا واقتدى بهداه مرّ على الصراط الذي هو جسر جهنم في الآخرة، ومن لم يعرفه زلت قدمه

---

(١) البحار، ج ٧، ص ٣١٥، ط طهران، ١٣٧٧ ﻫ.

(٢) نفس المصدر، ج ٨، ص ٦٧.

(٣) نفس المصدر، ج ٧، ص ٣١٢

عن الصراط في الآخرة فتردى في نار جهنم[١].

٥— عن زيد بن علي عن النبي (ص) يجيء يوم القيامة ذوالوجهين دالعاً لسانه في قفاه، وآخر من قدّامه يلتهبان ناراً حتى يلهبا جسده، ثم يقال له: هذا الذي كان في الدنيا ذا الوجهين و لسانين، يعرف بذلك يوم القيامة[٢].

مقارنة بين الحياتين

تشترك الحياة الدنيا والحياة الآخرة في كونها حياتين حقيقيتين وواقعيتين. الانسان في كلا الحياتين يعي على نفسه وعلى مايرتبط به. وفي كليهما لذة وعناء وفرح وحزن وسعادة وشقاء. غرائز الانسان بما فيها الغرائز الحيوانية والغرائز الانسانية الخاصة تتحكم في كلا الحياتين. يعيش الانسان في الحياتين بجسده وأعضائه وجوارحه، وفي كلا الحياتين فضاء و كواكب. ولكن بين الحياتين اختلافات أساسية:

في هذه الحياة الدنيا توالد وتناسل وطفولة وشباب وشيخوخة ثم موت، ولا وجود لمثل هذا هناك. هذه الحياة تتطلب العمل وغرس البذور وإعداد الارضية اللازمة، وتلك حياة جني الثمار والعيش في الارضية المعدّة. في هذه الحياة تتوفر إمكانية تغيير المسير والمصير من قِبَل الانسان نفسه عن طريق تغيير اتجاه حركته وعمله، ولا وجود لمثل هذا الامكان في تلك الحياة. الحياة هنا ممزوجة بالموت ومقرونة بالمادة الفاقدة للحياة، ولا توجد هناك سوى الحياة المحضة، وكل ما يحيط

---

(١) نفس المصدر، ج ٨، ص ٦٦.

(٢) نفس المصدر، ج ٧، ص ٢١٨.

الانسان هناك له حياة ووعي واحساس. تتحكم هنا الاسباب والعلل والظروف الخاصة الزمانية، وتوجد هنا الحركة والتكامل، وهناك يتجلى فقط الملكوت الالهي والارادة الالهية. شعور الانسان ووعيه وباصرته وادراكه في ذلك العالم أقوى بكثير من هذا العالم. وبعبارة أخرى ترتفع في تلك الحياة الستائر والحجب عن عين الانسان، فيدرك الحقائق بعمق، كما يقول تعالى:

فكشفنا عنك غطاءك فَبصُرك اليوم حديد. (ق، ٢٢)

الحياة الدنيا مقرونة بالتعب والملل، خاصة بسبب فقدان التنوع فيها. الانسان في هذه الحياة حائر يبحث عن شيء مفقود، وما أنْ يصل الى هدف من أهدافه حتى يظنه أنه الشيء الذي كان يبحث عنه، فيركن اليه، لكنه يحسّ بعد برهة أن هذا الذي ناله ليس بمطلوبه، فيعود اليه الشعور بالتعب والملل ويبدأ بالبحث عن هدف آخر... وهكذا الانسان في الحياة الدنيا يبحث دوما عن شيء لم ينله، ويسأم مما ناله. أما الحياة الاخرى، فهي لصيقة بأعماق فطرة الانسان وشعوره الشخصي، وهى الحقيقةُ التي طالما بحث عنها، أي الحياةُ الخالدة الى جوار ربّ العالمين. من هنا لايحسّ الانسان فيها تعباً ولا سأما، والقرآن الكريم يشير الى هذه المسألة إذ يقول:

لايبغون عنها حِولا. (الكهف، ١١٠)

أي إن أهل الجنة لايشعرون مللا ولا سأما من حياتهم الخالدة في النعيم. أضف الى ذلك أن أهل الجنة لايتألمون لشيء لم ينالوه، فإرادة الله شاءت أن يتوفر لهم كل ما أرادوه.

براهين القرآن

ايماننا بيوم القيامة ينطلق طبعا من إيماننا بالقرآن وأقوال الانبياء، من هنا ليس من الضروري أن نلجأ الى البرهان والاستدلال أو الى ذكر الشواهد والقرائن العلمية بشأن يوم القيامة. لكننا نجد في القرآن مجموعة من الادلة على البعث والنشور استهدفت فيما استهدفت تقريب صورة أحداث القيامة الى أذهاننا. وهانحن نستعرض هذه البراهين باختصار.

براهين القرآن مجموعة من الاجوبة على منكري القيامة. هذه الاجوبة يمكن أن نقسمها على ثلاثة أقسام:

١ــ آيات تبين إمكان القيامة وهي تجيب على أولئك الذين خالوا استحالة ذلك.

٢ــ آيات تجاوزت مرحلة الآيات السابقة، فذكرت نماذج من الحياة الدنيا تشبه البعث والنشور وبذلك تقرب فكرة القيامة الى الاذهان.

٣ــ آيات تجاوزت المرحلتين السابقتين، فذكرت أن القيامة أمر ضروري ونتيجة حتمية للحكمة المشهودة في عالم الخليقة.

ونستعرض فيما يلي آيات الاقسام الثلاثة:

أولا ــ

وضَربَ لنا مثلاً ونَسِيَ خلقَه قالَ من يُحيي العظامَ وهي رَميم؟ قُلْ يُحييها الذي أنشأها أول مرةٍ وهوبكل خَلق عليم. (يس، ٧٨)

هذه الآية الكريمة تجيب على اعتراض رجل من الكفار أخذ عظما نخرا، فطحنه بيده، ثم تساءل معترضا وقال: من يحيي العظام وهي رميم؟ والقرآن الكريم يردّ عليه في الآية الكريمة مرتين: مرة

ضمن طرح السؤال إذ يقول: «ونسي خلقه» ومرة أخرى بعد السؤال إذ يقول: «قُلْ يُحييها الذي أنشأها أول مرة».

الانسان يقسم الأشياء أحيانا الى ممكنة وغير ممكنة استنادا الى قدرته وقوته. وحين يواجه شيئا يفوق قدرته وطاقته يظن أنه غير ممكن ذاتيا. القرآن يذكر في هذه الآية أن هذا الامر ممكن لو أُسند الى القدرة التي أنشأت الانسان أول مرّة.

في القرآن الكريم آيات كثيرة تتجه الى هذا النوع من الاستدلال، وتركز على أن مشيئة الله العادل الحكيم التي قضت بظهور معجزة الحياة والخليقة أول مرة، ستعيد الحياة الى هذا الانسان يوم القيامة مرة أخرى.

ثانيا ــ آيات المجموعة الثانية يمكن تقسيمها على مجموعتين:

الف ــ آيات تتحدث عن وقائع سابقة أُعيدت فيها الحياة الى ميت، كالآيات التي تستعرض حواراً بين الله وسيدنا ابراهيم:

وإذ قالَ إبراهيمُ: ربِّ أرني كيف تُحيي الموتىٰ.
قال: أوَلَمْ تُؤمن؟
قال: بَلىٰ ولكن ليطمئنَّ قلبي.
قال: فَخُذْ أربعةً مِنَ الطير فَصُرْهُنَّ إليك، ثم اجعلْ على كلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزءاثم ادعُهُنَّ يأتينكَ سعياً واعلم أن الله عزيزٌ حكيم.
(البقرة/٢٦٠)

ب ــ آيات تستشهد بحياة الارض والنباتات بعد موتها في الخريف والشتاء، لتبرهن على عودة الحياة الى الانسان والكائنات بعد موتها وفنائها بوضع آخر وكيفية أخرى. وهذه الآيات تختلف عن آيات المجموعة الاولى بذكر شواهد محسوسة على قدرة الله من حياتنا الدنيوية، ولا تكتفي بذكر قدرة الله:

والله الذي أرسَلَ الرياح فتُثير سَحاباً فسُقناه الى بَلَد ميّتٍ فأحيينا به الأرضَ بعد موتها كذلك النشور. (فاطر، ٩)

وترى الارضَ هامدةً فإذا أنزلنا عليها الماءاهتزّت ورَبَتْ وأنبتَتْ من كلِّ زوج بهيج. ذلك بأنّ الله هو الحق وأنه يحيي الموتىٰ وأنه على كل شئ قدير. وأنّ الساعةَ آتية لا ريبَ فيها وأنّ اللهَ يبعَثُ مَنْ في القبور. (الحج، ٥ — ٧)

وهناك آيات كثيرة مشابهة تصور القيامة في إطار نظام الموت والحياة في هذا الكون... هذا النظام الذي نرى نموذجاً مصغراً منه على هذه الارض.

ولمزيد من التوضيح نقول: نحن البشر نعيش على الارض عادة خمسين أوستين سنة وقد يطول بنا العمر الى مائة سنة، وفي كل سنة نشهد دروة من دورات الموت والحياة، من هنا لانعجب حينما نرى الارض تحيىٰ وتهتزّ في الربيع بعد موتها في الشتاء والخريف. ولوكان عمر الانسان — فرضا — عدة شهور، كما هو حال بعض الحشرات، ولم يكن لهذا الانسان علم بتاريخ الارض و دوراتها، لما صدّق اطلاقا عودة الحياة الى الارض بعد موتها لانه لايستطيع أن يشاهد ذلك.

الانسان إذن يُشرف بوعي على دورة الحياة والموت في الطبيعة، كما إنه اضافة الى ذلك يدرك ارتباطه بأجزاء الكون، و يفهم ارتباط اجزاء الكون مع بعضها. الديدان والحشرات لا ترى ولا تدرك عالما غير البقعة التي تعيش فيها، ولا تفهم ارتباط عالمها بعوالم طبيعية أخرى. لكننا ندرك ذلك جيدا... ونفهم أن المدينة التي نعيش فيها ترتبط بنظام البلد الذي نعيش فيه، والبلد الذي نعيش فيه يرتبط بنظام الكرة الارضية، و نظام الكرة الارضية تابع لنظام مجموعتنا الشمسية، و نظام مجموعتنا الشمسية تابع لنظام الكون بأجمعه. من هنا نستطيع أن نحتمل

وجود نظام أشمل و أعم من كوننا هذا... وربّما كان عمر هذا الكون جزء من دورة أكبر و أعظم، وهذا الجزء من هذه الدورة ينطوي على الحياة والموت، وسيعقبه جزء آخر تنعدم فيه الحياة، ثم يعود ذلك النظام الأشمل و الأعم لاستئناف الحياة مرة أخرى.

الانبياء أخبرونا من قِبَل الله عن انهدام الكون وانطفاء شمعة الحياة في زمن معين ثم حشر الاموات في نظام جديد. و نحن نؤمن بذلك انطلاقا من إيماننا بالنبوة.

القرآن الكريم في أمثلته المذكورة عن نظام الموت والحياة على الارض يستهدف إعطاء صورة مصغرة عن البعث في يوم القيامة، و يرمي الى تقريب ذلك الى الذهن كي لانتصوره مخالفا لسنن الكون. فهو يقول إنّ البعث تجديد للحياة، و تجديد الحياة ظاهرة مشهودة على ظهر الارض وهذا المعنى ورد في الحديث النبوي الشريف أيضا عن رسول الله حيث قال:

إذا رأيتم الربيع فأكثروا ذكرَ النشور.

ج— المجموعة الثالثة آيات تتحدث عن القيامة على أنها أمر ضروري وحتمي، وانعدامها يستلزم أمراً محالا في ذات الله تعالى. وهذا بينه القرآن عن طريقين:

الاول— عن طريق العدل الالهي، أي عن طريق توضيح حتمية العطاء الالهي لكل مخلوق يستحق هذا العطاء و يليق له.

والثاني— عن طريق الحكمة الالهية، وذلك بتوضيح أن الذات المقدسة الالهية خلقت الموجودات من أجل هدف وغاية. وأن الحكمة الالهية تستوجب إيصال الموجودات الى كمالها اللائق وغايتها الممكنة.

القرآن الكريم يذهب الى أن العدل الالهي يستوجب وجود

القيامة والحياة الخالدة والثواب والعقاب الاخروى، وان انعدمَ وجودُ هذه الامر فذلك ظلم ومخالف للعدل الالهي، والظلم محال على الله. و يذهب أيضا الى أن نظام الخلقة عبث وخواء إنْ فقد الحياة الخالدة، والعبث محال على الله أيضا.

الآيات الكريمة المندرجة في هذه المجموعة كثيرة نكتفي بذكر موضعين منها:

١ــ وما خَلَقنا السماء والارضَ ومابينهما باطلا ذلك ظَنّ الذين كفروا فويلٌ للذين كفروا من النار. أم نجعلُ الذينَ آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ كالمفسدينَ في الارض أم نجعل المتقين كالفُجّار؟ (ص، ٢٧، ٢٨)

هاتان الآيتان الكريمتان وردتا في سياق الحديث عن العذاب الشديد الذي يحيق بالمنحرفين لنسيانهم يوم الحساب. الآية الاولى تشير الى حكمة الله والى الحكمة في الكون. والثانية تشير الى عدالة الله، والى العدل في نظام الخليقة.

٢ــ أم حَسِبَ الذينَ اجترَحُوا السيئاتِ أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات، سواء محياهُم ومماتهم؟ ساء مايحكُمون. وخَلَق الله السمواتِ والارضَ بالحق ولتُجزَىٰ كلُّ نفسٍ بما كسَبَتْ وهم لايُظْلَمون. (الجاثية، ٢١، ٢٢)

الآية الاولى تشير الى مبدأ العدل والثانية الى مبدأ الحكمة. وفي ذيل الآية الثانية اشارة أخرى الى أن العدل الالهي غاية وهدف لقيام القيامة.

العدل الالهي والحكمة الالهيّة

يلزمنا أن نوضح مبدئي العدل الالهي والحكمة الالهية، وارتباطهما بضرورة وجود الحياة الخالدة.

العدل الالهي:

العدل بمفهومه الواسع يعني إعطاء الحق لذو يه دون تمييز بينهم. فعدم إعطاء الحق لذو يه مخالف للعدل، وكذلك التمييز بين ذوي الحق في إعطائهم حقهم مخالف للعدل أيضا.

لوأعطى معلم لكل طلابه علامات أقل مما يستحقونه، فانه سار بهم خلافا للعدل، ولو أعطى بعضهم حقّه من العلامات، و أنقص علامات بعض آخر لكان مخالفا للعدل في سلوكه أيضا.

العدالة تلازم المساواة من جهة، لان المساواة تعني عدم التمييز في إعطاء الحقوق. أي تعني إعطاء كل ذي حق مايستحقه. فان استحق كثيراً أُعطي كثيراً، وان استحق قليلاً أُعطِيَ قليلا. أما إذا كانت المساواة مساواة في «الاعطاء» دون النظر إلى درجة الاستحقاق، أي إعطاء الافراد مقداراً واحداً متساو ياً بغضّ النظر عن مقدار استحقاقهم، فمثل هذه المساواة مخالفة للعدالة و مساو ية للظلم. و كذلك المساواة في المنع، أي في حرمان الجميع من حقهم بشكل متساوٍ ظلم أيضا.

من هنا فالعدل الالهي يعني وصول العطاء الالهي الى كل موجود بمقدار ما في الموجود من درجة و امكان و قابلية لتقبل عطاء اللّه تعالى.

إنْ فقد موجود شيئاً، فلانه يعيش في مجموعة ظروف و ملابسات لا توفر فيه إمكان تقبل ذلك الشيء.

مما تقدم نفهم أن العدل الالهي يفرض منح الكمال اللائق للموجودات المجهزة بالامكانات اللازمة لهذا المنح والعطاء. و توقف هذا المنح مخالف للعدل الالهي.

الانسان يمتاز عن سائر الموجودات باعتباره موجوداً ذا امكانيات و كفاء ات و قدرات خاصة. الدوافع التي تدفع الانسان نحو العمل و النشاط لا تنحصر بالدوافع الحيوانية. الحيوان ذو غرائز تربطه بالطبيعة و بحياته المادية. لكن الانسان — كما قلنا — ذو غرائز تسمو على الواقع المادي لهذا العالم و ترتفع الى مستوى البقاء والخلود.

الانسان يتمتع بدوافع سامية: أخلاقية، و علمية و ذوقية و دينية و الهية، و ينجز كثيراً من أعماله انطلاقا من هذه الدوافع. و يضحّي أحيانا بحياته الطبيعية و المادية و الحيوانية من أجل أهدافه السامية الانسانية. الانسان يقيم حياته العملية على أساس «الايمان والعمل الصالح» بالتعبير القرآني، و يستهدف في حياته العملية هذه السعادة الباقية ورضا اللّه تعالى. الانسان ينطوي على فكرة الخلود العظيمة وعلى الأمل في بلوغها، وعلى الغرائز التي تدفعه نحوها.

كل هذه الظواهر تدل على نوع من القابلية والاستعداد للخلود في النفس الانسانية، و بعبارة أخرى تدل على تجرّد الروح الانسانية وسموها على المادة. وهذه الظواهر تجعل الانسان في هذه الحياة الدنيا مثل الجنين في رحم أمه. فالجنين مجهز بالجهاز التنفسي و الدموي والعصبي والبصري والسمعي والتناسلي. وهذه الا جهزة تتناسب مع حياة الانسان بعد خروجه من الرحم ولا تتناسب مع الفترة الموقتة التى يمضيها في الرحم.

صحيح أن الانسان يجني ثمار عمله في هذه الحياة الدنيا من خلال إيمانه و عمله الصالح لكن هذه الثمار عارضة ؛ لان نظام الايمان و العمل الصالح مثل بذرة لا تنمو إلاّ في ظل حياة سعيدة خالدة. أي إن هذا النظام يجد مفهومه الصحيح ومعناه الحقيقي في ظل الحياة

الخالدة.

الانسان يرتفع في أُفق يسمو على أفق الطبيعة المادية، لا في ظل نظام الايمان والعمل الصالح فحسب، بل في ظل النظام المضاد للايمان والعمل الصالح، أو نظام الكفر والفسق بالتعبير القرآني أيضا. ففي إطار نظام الكفر والفسق كذلك تتجاوز أعمال الانسان حدود الحسابات المادية والحيوانية والاحتياجات البدنية والعلاقات المادية، وتتخذ هذه الاعمال طابعا روحيا خالداً، ولكن بشكل منحـــرف. ومن هنا يستحق الانسان المنحرف أيضا حياةً خالدة غير أنها مقرونة — مع الأسف — بالعذاب والألم. أو هي بالتعبير القرآني حياة جهنميّة.

إن ابتعدَ الانسان عن مدار الايمان والعمل الصالح، لايتحرك في المدار الحيوانى، بل يهبط الى مادون هذا المدار، الى تحت الصفر، الى المستوى الذي تشير اليه الآية الكريمة: «بل هم أضل».

مَثَل الناس المتحركين في إطار نظام الايمان و العمل الصالح و الناس المتحركين في إطار نظام الفسق و الشرك كمثل تلاميذ بعضهم أدى واجباته على النحو الأكمل، و بعضهم قصّر في أداء واجبه و أهمل. فان أراد معلم أن يحرم جميع هؤلاء التلاميذ من العلامات فقد ظلمهم. و هكذا الامر لو افترضنا عدم وجود حياة خالدة بعد الموت.

بعبارة أبسط، دعا اللّه سبحانه و تعالى الناس الى الايمان و العمل الصالح. فانقسم الناس أمام هذه الدعوة على قسمين: بعضهم قبلوا الدعوة و تمسكوا بتعاليمها الفكرية والا خلاقية والعملية. و بعضهم رفضوا دعوة اللّه ولجّوا في عُتُوٍّ و نُفُور. و من جهة أخرى نرى أن نظام هذا العالم لايقوم على أساس إثابة المحسن و معاقبة المسيء حتماً و بالضرورة. بل إن بعض الحسنات — مثل الاستشهاد في سبيل اللّه —

ينتهي عندها عمر الانسان و لايبقى مجال للجزاء. من هنا لابد من وجود عالم آخر ينال فيه المحسنون جزاء إحسانهم، و يلقى المسيؤون فيه عقابهم، والا فذلك مخالف للعدل الإلٰهي.

الحكمة الالهية :

أعمال الانسان نوعان: أعمال عابثة فارغة غير منتجة، أي لا تؤثر في ايصالنا الى درجات الكمال الموجودة فينا بالقوة.. الى سعادتنا الحقيقية. وأعمال متعقلة حكيمة ذات نتائج جيدة ومفيدة، وذات قدرة على الارتفاع بنا الى كمالنا اللائق بنا. العمل من النوع الاول لغو وعبث، ومن النوع الثاني أصيل وحكيم.

فالعمل الانساني الحكيم هو العمل الذي يبلغ بنا الى كمالنا اللائق .

تُرى، ماهو العمل الحكيم الالهي؟ هل هو العمل الذي يوصله سبحانه وتعالى الى كماله اللائق؟ أبداً، فالله غني ذوفضل على العالمين، ومايفعله عطاء وجود وكرم، ولا يؤدي عملا لرفع احتياجاته أولبلوغ كمال أو تحقيق سعادة له. العمل الحكيم الالهي عبارة عن العمل الذي يوصل المخلوق الى كماله اللائق به. ومن هنا لايمكن أن يصدر عن الله عمل يتصف باللغو والعبث لان مثل هذا العمل يعني أن يخلق الله موجوداً دون أن يوصله الى كماله الممكن واللائق به.

مما تقدم نفهم الفرق بين مفهوم الحكمة الالهية، ومفهوم الحكمة البشرية. الحكمة في الانسان عبارة عن التعقل والسير على طريق الكمال الانساني. وحكمة الله تعني ايصال المخلوقات الى كمالها اللائق بها أو خلق الاشياء على أساس دفعها نحو غاياتها وكمالاتها.

حين يصنع الانسان من المواد الاولية كالتراب والخشب

والحجر والمعادن والجلود والقطن وأمثالها وسائل مختلفة مثل الكرسي أو السيارة أو الثوب، فان هذه الوسائل لا تعتبر تكاملا للمواد الاولية المذكورة. كما ان هذه المواد الاولية لم تتحرك نحو اتخاذ صور هذه الوسائل، بل إن النتيجة من استخدام الانسان لهذه الوسائل، كجلوسه على الكرسي وسكنه في المنزل و حركته بالسيارة وارتدائه للملبس، هي كمال للانسان، أوهي على الاقل أمر نافع له، ذلك لان الحكمة في عمل الانسان عبارة عن اتجاه العمل نحو تحقيق كمال للانسان. من هنا لايوجد هناك ارتباط حقيقي بالضرورة بين عمل الانسان والنتيجة التي يحصل عليها الانسان من عمله. أي إن عمل الانسان لايتجه بالضرورة نحو تكامل نتيجة العمل.

أما بشأن الله سبحانه وتعالى، فهناك ارتباط حقيقي وطبيعي بين عمله والنتيجة المترتبة عل ذلك العمل. أي إن الغاية والنتيجة من العمل الالهي عبارة عن الكمال الحقيقي لذلك العمل. الله سبحانه يسوق مخلوقه، الذي هو فعله وعمله، نحو كماله. وهكذا نرى كل حبّة و بذرة تتحرك نحو كمالها وغايتها.

ثمة مسألة تطرح في هذا المجال ترتبط بتغير العالم وعدم ثباته ومن هذه المسألة يستنبط بعضٌ أن العالم يتصف بالعبث والخواء.

عالم الطبيعة مقرون بالتغيير وعدم الثبات. وكل غاية، نأخذها بنظر الاعتبار في الطبيعة متغيرة وغير ثابتة. وكل مرحلة من مراحل الطبيعة موقتة فانية، ولا يمثل أي منها المقصد الذاتي.

إنطلاقا من مفهوم التغيّر المستمر في عالم الطبيعة ذهب جماعة الى أن حركة العالم لا تصل الى هدفها الحقيقي، بل هي في تغيير دائم، ومن هنا فهذه الحركة حركة عبثية، لان الحركة تكون ذات معنى

ومحتوى حين تتوخّى هدفاً معينا، أما إذالم يكن لهذه الحركة محطة نهائية وهدف نهائي فليس فيها سوى العبث والخواء. حين يعقب كلّ وجود عدم، و يعقب كلّ بناء هدم، فان النظام المتحكم في العالم قائم على أساس العبثية والتكرار.

القرآن يرفض هذا الاستنتاج لانه لايرى مسيرة الكون محدودة بهذه الحياة الدنيا. لوكانت المسيرة محدودة بهذه الدنيا، وكانت كل ولادة للموت وكل بناء للهدم وكل اخضرار للذبول و كل جديد للبلى لصحّت هذه الشبهة. لكن هذه الفكرة تنطلق من «نظرة ناقصة» تنطلق من فهم للكون محدود بهذه الدنيا ومحصور بالطبيعة المادية. نظام الوجود لاينحصر بالدنيا والطبيعة المادية. الدنيا «يوم أول» يعقبها «يوم آخر». الدنيا «سير» والآخرة «وصول» يقول علي بن أبي طالب— عليه السلام—:

الدنيا دار مجاز والآخرة دار قرار.

الآخرة هي التي تمنح الدنيا معنى، إذ انّ المقصد هوالذي يجعل الحركة ذات معنى. إن لم تكن ثمة حياة أخرى خالدة، لما كان للكون مقصد نهائي بالمعنى الواقعي للمقصد، ولكانت مسير الحياة نوع من «العبث» و«الباطل» و«اللعب» بالمصطلح القرآني.

الأنبياء جاؤوا للوقوف بوجه هذا الانحراف في التفكير وليرشدونا الى حقيقة لو فقدناها لتحولت حياتنا بأجمعها الى عبث ولعب، ولتلوثت أفكارنا بالتصورات الخاو ية الفارغة التافهة، ولتحولنا نحن بدورنا الى موجودات عابثة عديمة المعنى والهدف. أحد آثار الايمان والاعتقاد بالعالم الآخر يتمثل في إنقاذنا من العبث والفراغ وفي إضفاء معنى على وجودنا وأفكارنا.

« الفهرس »

المعاد من أركان التصور الاسلامي ٥
مصدر الايمان بالحياة الاخرى ٦
ماهية الموت ٨
الحياة بعد الموت ١٣
عالم البرزخ ١٤
القيامة الكبرى ١٧
العلاقة بين الحياة الدنيا و الحياة الأخرى ١٨
خلود الاعمال وتجسمها ١٩
مقارنة بين الحياتين ٢٢
براهين القرآن ٢٤
العدل الالهى والحكمة الهية ٢٨
العدل الالهى ٢٩
الحكمة الالهية ٣٢